كتابك

١٦

سلوى العنانى

أيامى على الهوا

دار المعارف

هـذا الكتاب

رحلة طويلة على الهواء . . مع السفر . . فوق المدن والقارات والمحيطات قامت بها مضيفة جوية تعاملت هي ونماذج متعددة من البشر تختلف انماطهم وتتفاوت مشاعرهم . . نظرت كثيراً في السماء فشاهدت آيات الله في الآفاق . . وأعادت نظرها إلى العشب الأخضر فوق التلال الراقدة وإلى البحار العميقة وعوالمها المجهولة فآمنت أكثر وأكثر

١٠ جـ

كتابك (١٦)

رئيس التحرير: أنيس منصور

سلوى العنانى

أيامي على الهوا

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى السحب البيضاء التى طالما احتوتنى فى أحضانها . .
إلى الموانى البعيدة التى ما زلت أعيش مع ذكرياتها . .
إلى رفاق فى كل رحيل . .
إلى أصدقائى فى كل ميناء . .

سلوى

مقدمة

مضيفة . . . وظيفة لها بريق يشد معظم الفتيات حتى اللواتى لا تتوفر فيهن شروط هذا العمل .

السفر . . . بكل ما تحمله الكلمة من الإثارة والإبهار ، فالعالم كله ملك يد هذه المضيفة .

وبرغم هذا فلم تكن هذه الوظيفة ضمن أحلامى وآمالى ، فاستعدادى ودراستى الجامعية ، وتكوينى الذهنى لا يؤهلنى لهذا العمل ، وتؤدى المصادفة دورها ، وتفرض الأقدار إرادتها ، لأجد نفسى فى الزى الأخضر ، وعلى صدرى شارة الطيران ، وأنا أحلق فى سماء قارات الدنيا .

الكذب بعينه لو أنكرت سعادتى ، والنفاق لو ادعيت زهدى فى عملى ، فقد كان كل يوم يحمل لى جديداً ، وكل ساعة مفاجأة ، وكل ليلة ذكريات أستعيدها ليوم حافل ، وربما كل صباح ذكريات ليلة شاقة .

هو بلا شك عمل شاق ، مجهد ، ولكن التجديد والخروج على النظام والرتابة فيه تهون كثيراً من هذا الإرهاق ، فكل يوم فى مدينة ،

وكل ساعة مع وجوه جديدة تترك ميناء درجة حرارته عشرون درجة مئوية ، لنهبط بعد ساعات قليلة فى درجة حرارة تحت الصفر أو درجة حرارة فوق الأربعين ، أنت الآن مع مجموعة تتحدث بالفرنسية ، ذوى وجوه شقراء وبعد ساعات مع وجوه سمراء نحاسية ، وأزياء غريبة أو لغة لا تفهمها وتؤدى الإشارة دورها ، والإيماءة تصبح لغة بليغة .

حتى الزملاء من أفراد الطاقم يتغيرون فى كل رحلة (وهذا هو نظام العمل فى شركتنا المصرية) فأنت اليوم مع شخص متعاون ، وقائد مهذب متزن ، وغداً مع زميل جانبه التهذيب يجد فى مضايقتك سعادة تملأ صدره ، وتشيع فى نفسه المريضة فرحة النصر .

وبين هذه السعادة وهذا الضيق ، وهذه الرغبة فى الاستمرار محلقة إلى الأبد ، يراودنى ويطيل فى عمر صبرى الأمل فى أن أهبط على صدر حبيبتى (الأرض) طلباً للاستقرار ، بين الابتسامة الدائمة على وجهى ، والدمعة التى لم يرها أحد بين نوم النهار وسهر الليل ، بين لسعة البرد فى أيام الشتاء ، والإحساس بالاختناق بتأثير الرطوبة فى مدن خط الاستواء .

بين كل هذا سطرت خواطرى ، احتضنت قلمى ، وبثثت وريقات دفترى أحلى ذكرياتى عن أجمل أيام (أيام على الهواء) .

فهل تستطيع كلماتى أن تحمل شحنات النعيم والعذاب ؟

وهل يستطيع حديثى أن ينقل للناس عالمى المسحور ؟

فذكرياتى حافلة بالفرحة ، والدموع ، والحب ، والصلاة ، . ! !

فكم مرة شعرت كما لو أنى أعيش فى وطن الشعر والقمر .

وكم مرة شعرت كأنى أعيش فى ظلال الأشجار التى تحمل الطيور المغردة حولى بنشيد السعادة والبهجة ، وتبعث فى نفسى الرضا بما قسم لى من حياة ارتضيتها لنفسى .

وكم مرة شعرت كما لو أن هذه الحديقة تحولت إلى غابة خلت من الحيوانات الطيبة ؟

وكم مرة شعرت أنى بحاجة لكى أعيش أن أجعل كل الحيوانات أليفة مستأنسة .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير . . !

وكم من لحظات شعرت أنى فى حاجة إلى صبر أيوب ، وحكمة سليمان ، ولكن أنّى لى ذلك ؟

لم يكن لى إلا ثقتى بالله ، وأنعم به وكيلا .

فأرجو أن يتقبل قارئى دمعى وابتسامى ، وحبى ، وأن يتقبل الله صلاتى .

* * *

مشكلتى هى الابتسامة

(الابتسامة هى مفتاح قلوب الناس) عبارة كنت قد قرأتها فى سنى مراهقتى ، وقتها كان كل أملى أن يكون لى مكان فى قلب كل من أقابل . رجلاً أو امرأة ، صغيراً أو كبيراً ، قريباً كان أو غريباً واحتفظت بهذه السمة ، أياماً بعد أيام ، وسنين تدفع أمامها سنين .

كنت فى أيام مراهقتى أجد سعادة عندما تقابل ابتسامتى بابتسامة من الآخرين .

وعندما دخلت وظيفتى الجديدة وسمعت أولى نصائح المضيفات القدامى (Keep Smiling) استجبت لما طلب منى ، وكنت دائمة الابتسامة ، فهذا أقل واجب . فأنا صاحبة البيت الطائر ، وكل هؤلاء الركاب ضيوفى . فلا أقل من ابتسامة مع كلمة ترحيب وأنا أستقبل ضيوفى هؤلاء الذين ربما كانوا يخوضون لأول مرة تجربة ترك حضن الأرض الأم إلى عالم الجو المجهول ، بكل ما يحف به ويحتويه من خوف وقلق ، كانت ابتسامتى تعطى بعضاً إحساساً بالاطمئنان ، وكانت الكلمات الرقيقة المتودّدة ، تبدد الخوف والرهبة ، وتغرس بذور الأمان والاطمئنان فى القلوب الواجفة المرتجفة . فتتعلق العيون القلقة بالوجه المطمئن ، فيسرى إليها الاطمئنان . . !

وكانت ذات الابتسامة تعطى بعضاً آخر متمرساً بالسفر ، اعتاد ركوب الجو لساعات وساعات . فرصة طيبة على أمل قضاء وقت الرحلة فى حديث مرح وسعيد ، وتتسابق الأصابع على أزرار الاستدعاء .

* أفندم
* والله (البارى ماتش) (Paris Mach)
* متأسفة
* الشركة مفلسة ولا إيه ؟ . . . أنا سافرت على طائرات (t.w.a.) وكان هناك دوريات من كل بلاد العالم وبكل اللغات . . . وأصل أنا دائم الأسفار ، أنا كنت الأسبوع الماضى . . . .
* عن إذنك . !

ويعلو صوت الاستدعاء مرة أخرى ، ويظهر النور الأخضر فى الجانب الأيسر لكابينة الركاب . إنه المقعد الثامن .

* أفندم
* ممكن كوب من ماء (فيشى)
* متأسفة عندى إيفيان . !
* ممكن صودا ؟
* ممكن .

وعندما أعود إليه بزجاجة الصودا وأبدأ فى صبها فى كوبه

* تعبناك معانا .

* لا . أبداً أنا تحت أمرك .

* أنا نازل فى لندن فى فندق (...) حاجز غرفة (٧١٣) وأنا أعرف لندن كما أعرف العتبة والموسكى .

ويمد يده داخل سترته ، ويخرج بطاقة أنيقة باسمه وعنوانه مكتوبة باللغة الإنجليزية ، ولا أدرى لماذا اختفت إبتسامتى لحظتها . ويضع بطاقته فوق الصينية التى أحملها ، وأنصرف بخطوات سريعة . وما إن يطالعنى وجه زميلى الذى يعمل داخل البوفيه حتى أطلق زفرة ، وأجدنى أضع بطاقة رجل الأعمال الأنيق داخل أقرب صندوق للمهملات والفضلات . . .

* أنت السبب

واصطدمت كلمة زميلى ورأسى كأنها حجر .

* ليه ؟ ؟ . . . ماذا فىَّ يدعو لهذا ؟

* إن الابتسامة التى لم تغرب عن وجهك وأنت تخدمين سبعين راكباً ابتسامة متوددة ، وكلمات رقيقة ، فلماذا لا يطمع الطامعون ؟ ويعلو الصفير ويلمع الضوء الأخضر ؟

الجانب الأيسر ، الكرسى العاشر ، سيدة أنيقة جدًّا ، ارتدت كل ما هو حديث ومتناقض . وجعلت منه مجموعة لأول مرة أراها ، ومعها طفلها فى الثالثة .

* ممكن الولد يدخل الحمام .

* تحت أمرك . . . اتفضلى .

* ممكن يروح معاك ، أنا أخاف أقع فى أثناء طيران الطيارة ، ولحظتها اختفت ابتسامتى وأمسكت بالصغير إلى الحمام ، وفى طريقى لاحت منى نظرة كلها غيظ طالعت بها زميلى .

(تستاهلى . . إنت مش كنت واقفة تساعديه فى الأكل ؟ « استلمى » يا ست بقى !) . وظهر النور الأحمر يحذر التدخين ، ويرجو ربط الأحزمة ، وبعد أن اطمأننت على الجميع ، جلست على مقعدى وربطت حزامى ببطء وشرود وسألت نفسى :

* أتجر علىّ الابتسامة كل هذه المتاعب ؟ ؟ ؟

موعد فى بيت المقدس

هبطت بنا الطائرة فى مطار مرسى مطروح ، ونزل الجميع إلا أنا ، ألقيت بنفسى على أقرب مقعد ألتمس دقائق من الراحة لم تدم طويلاً ، قطعها موظف المحطة بأن طلب منى الاستعداد للرحيل ، فليس معنا إلا راكب واحد .

كان هذا فى أحد أيام الأسبوع الأخير من شهر أغسطس عام ١٩٦٩ ، كانت رحلة الذهاب مرهقة متعبة ، كان على الطائرة ٤٤ راكباً ، واعتذر زميلى وقمت وحدى بالرحلة .

سرت بخطوات مستسلمة أصلح من شأنى لأقف فى انتظار راكبنا الوحيد .

ولمحته يقترب من الطائرة ثم يصعد السلم ، وبادرنى بتحية فيها كثير من المجاملة .

كان رجلاً فى نهاية عقده الرابع ، أسمر اللون ، جادّ الملامح ، واضح القسمات ، فى وجهه شيء من الصرامة الرقيقة والحدة الوديعة ، فى ابتسامته ما يبعث على الاحترام ويقوى على الألفة ، ووجدتنى أسائل نفسى من ياترى راكبنا الوحيد ، فأنا أعرفه ؟

وجاءتنى الإجابة من أكثر من مصدر ، (إنه الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف) آن ذاك .

وبرز أمام عينى (مانشيت) صحيفة الصباح . فقد كان يحمل أسوأ الأخبار وأسودها ، وتنبهت آلامى من جديد ، وبدت حروف العنوان أمامى سوداء كئيبة ، تكتب أقسى الكلمات (حريق بيت المقدس) .

وعلا صوت المحركات يعلن بدء رحلتنا عائدين إلى القاهرة ، أبديت خلال الدقائق الأولى ترحيباً عظيماً بضيفى العظيم . . . بادلنى خلالها التحية بأحسن منها ، وإن كان قد اعتذر عن عدم تناول أى طعام أو شراب . إلا قدحاً صغيراً من القهوة ، ووجدت الكلمات تكاد تخنقنى إذا أنا كبحت جماحها . فقد كانت رغبتى فى الحديث مع ضيفنا الوزير عن هذا الجرح الذى أصابنى فى الصباح وما زال ينزف .

بدأته الحديث ، وبدا وكأنه كان ينتظر منى المبادرة ، واسترسل يحكى ويروى ، وتخيلت الطائرة ساعتها قاعة فخمة من قاعات المحاضرة أستمع فيها وحدى ، ويلقى فيها الدكتور عبد العزيز كامل محاضرة عن القدس الشريف ، تاريخه ، ومكانته عند المسلمين والمسيحيين ، والآثار السياسية لهذا الحريق المدبر الغادر ، ويتفرع بنا الحديث وأنا لا أكف عن السؤال وهو لا يتوانى عن الرد المقنع الرائع .

حديث عالم جليل ومسلم غيور ومسئول أمين . كانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى رأيت فيها المحاضر وقد اختنقت الكلمات فى حلقه ، وهو يمسح دموعه بلا خجل أو تردد .

كانت المرة الأولى والأخيرة التى رأيت فيها محاضراً يلقى محاضرة بكل اللغات واللهجات الإنسانية ، الكلمات ، وتعبيرات اليد ، والوجه ، نبرات الصوت ودمعات العيون ، وشهقة يكتمها الوقار والثقة بالله .

كانت المرة الأولى التى أدركت فيها أن هناك خيطاً واحداً يربط التاريخ بالعقائد السياسية بالاقتصاد ، كانت المرة الأولى التى تيقنت فيها أن فى قلبى شيئاً كبيراً . أكبر من حبى لأهلى ووطنى وإنسانيتى ، هو حبى لدينى العظيم . ولم أشعر إلا والطائرة تهبط بنا على أحد ممرات مطار القاهرة الدولى ، وهدأ هدير المحركات ، وفتحت أبواب الطائرة ، وصافحت ضيفى الوزير الذى تحول بالنسبة لى إلى أستاذ ومعلم ، بصرف النظر عن وظيفته ومع ابتسامة الوداع قال لى :

* أرجو أن نلتقى ثانية .
* قلت : فى رحلة قريبة إلى بيت المقدس .

أستك للطوارئ

هل تصورت نفسك يا عزيزى أبا لمائة ابن ؟
هل تصورت نفسك يا عزيزتى أمًّا لمائة ابن ؟
أظن أن هذا الأمر يتجاوز دائرة خيال أى إنسان عادى ، ولكنه واقع بالنسبة للمضيف أو المضيفة الجوية .

فمطلوب من هذه المضيفة أن تتحمل الركاب وطلباتهم المتكررة حتى السّخيف منها وغير المستطاع . ومطلوب منها أن تنزع الخوف من قلب أى خائف ، وأن نعيد الهدوء إلى معدة أى راكب تعرض لدوار الجو ، وأن تروى أى عطشان ، وأن تطعم أى جائع ، وأن تأتى بالشاى والقهوة والحلوى والمرطبات ، ليس للركاب الأطفال ، لا . . ولكن الكبار أولا ، فهم بين يديها لا يزيدون عن أطفال صغار يتمادون فى دلالهم على أمهم (التى هى المضيفة) عشرات وعشرات من الجنسين .

* جريدة من فضلك
* ممكن ماء مثلج
* الحمام لو سمحت

ويظن كل من هؤلاء الركاب أنه الراكب الوحيد .

كان يوماً شديد الحرارة ، وموعد إقلاع الطائرة فى الثانية بعد الظهر ، كنت مكلفة بخدمة ركاب الدرجة الأولى . وكان ركابى اثنين . رجلاً وزوجته ، وهو يعمل فى السلك الدبلوماسى ، وهى سيدة بدينة بيضاء ، تلبس كل جديد لديها من ملابس وحلى .

دعتنى ، ثم اقتربت برأسها إلىّ ، مما دعانى إلى أن أقترب أنا الأخرى منها ، ثم قالت :

* عايزة أستك للشراب . . . !

وبرغم أنى سمعتها جيداً فإنى دعوتها لتكرار الطلب الغريب .

* أستك شرابى انقطع

وارتسمت ابتسامة خفيفة داريت بها الحيرة والتعجب من على وجهى ، وقلت حاضر . . . أحاول .

وقدحت ذهنى فى محاولة لحل مشكلة هذه السيدة ، وفشلت كل أفكارى ، وذهبت أطلب المشورة من زميلتى ، ثم من زميلى ، ولكنى لم أجد أكثر من السخرية .

ولما عدت إليها بفشلى ، رفضت أن تتركنى أعود ، وصممت راجية أن أتصرف ، فرجال الخارجية وعقيلاتهم فى انتظارها ، وكيف تسير بفردة شراب واحدة أو بدون شراب .

وأكدت لها أنى لا أستعمل لشرابى (أستك) وأنى أرتدى حمالة لشد

الشراب ، وأنى مستعدة للنزول عنها لوأن محيط وسطى اقترب حتى من نصف محيط وسطها .

والغريب أن زوجها كان مبهوراً بالحديث ، ويحنى بين الحين والحين على التفكير فى حل للمشكلة ، فهو بحكم وظيفته يحاول أن يجد لكل مشكلة حلا ، ولما سُقط فى يدى ويدها باقتراب هبوطها فى مطار الوصول اضطرت أن تشكرنى لأنها (شغلتنى) طوال الرحلة .

ومن يومها صممت أن أحتفظ فى حقيبتى بمترين من الأستك (للطوارئ) !!

أحلى زجاجة كوكاكولا

أن تزور (باريس) مدينة الليل والأضواء ، وأن تقضى فيها يومين وليلتين ، فهذا حلم جميل ، ولكن أن تتصعلك فى شوارع باريس تحت المطر تشتهى ثمرة أو ثمرتين من « أبو فروة » الساخن ، فهذا شيء مزعج ومضحك معاً .

كانت رحلتنا إلى باريس على أمل العودة بعد انتظار أقل من ساعة فى مطارها الأنيق . وقبل الإقلاع بقليل اكتشف المهندس وجود عطل فنى يفرض علينا البقاء لحين إصلاحه .

وكان المبيت فى عاصمة الأنوار بدون حجز مسبق معجزة مستحيلة

التحقيق ، ولكن مروراً بفنادق الدرجة الأولى ثم الثانية توصل الموظف المسكين الذى أدار قرص التليفون بأرقام جميع فنادق المدينة إلى ثلاث غرف فى فندق صغير . . ولكنه محترم .

وفى الصباح خرجنا للسياحة فى شوارع المدينة العجيبة . . . كل شىء جميل . . . مثير . . . ولكنه غال . . . نار . . . كانت الأسعار ثلاثة أضعاف لندن مثلاً . ولكن المنتوجات كانت شديدة الجودة ، رائعة الذوق . . . عالية الأناقة . . . وطال تسكعنا ، ودخلنا أصغر مطعم قابلنا لنتناول غداءنا ولندفع كل ما معنا حتى بدل المبيت الذى تقاضيناه عن ليلتنا .

وخرجنا نترحم على قاهرتنا العظيمة التى يستطيع الرجل فى أعظم شوارعها أن يدخل مطعماً فاخراً للفول فيأكل ويشرب الشاى ويترك باقى (البريزة) بقشيشاً لصبى المطعم .

فى الفندق الصغير استقر بنا الحال .

وعلى سرير أنيق فى الحجرة الصغيرة استلقيت ، ورقدت زميلتى على السرير المجاور

* أنا عطشانة . . . نفسى فى كوكاكولا
* معاك فلوس . . . أنا معايا ٣ فرنكات

ورفعت زميلتى سماعة التليفون وسألت عن ثمن زجاجة الكوكاكولا ثم طلبت واحدة .

* الواحدة ثمنها ٥ فرنكات . طلبت واحدة (نخمسها سوا) وكان (تخميس) أحلى زجاجة كوكاكولا هو أطرف ذكرياتى فى مدينة النور والسحر والأناقة والجمال (باريس) . وتذكرت قول من قال الغنى وطن ، والفقر غربة . . .

لن أنتظر حبيبى

أن تختلط الدمعة بالابتسامة فى وجه الإنسان فى لحظة واحدة فهذا قمة الصدق ، أن تختنق الكلمات وتستحيل إشارات تلقائية ، فهذه هى لحظات الصراحة التى يعيشها الإنسان مع نفسه .

صيحات وإشارات ، قبلات ودموع ، عناق وسلام ، رجل يجرى وآخر يتمهل ، عيون تتعلق بساعة الحائط ، وآذان تتعلق بمكبر الصوت ، سؤال واستفسار واستعلام .

ضحكات صافية ، وهمسات دافئة ، وعد وقسم ، وتوصية واستعطاف ، كل هذا تجده فى لحظة واحدة ، تلتقطه عدسة عينيك فى لقطة واحدة . . . مسرحها المطار . . . أى مطار فى أى قارة من قارات العالم . . .

فالمطار أو الميناء يعنى وداعاً ولقاء ،

فى شمالى أوربا وغربيها كثيراً ما يذهب المسافر إلى المطار وحده ،

متاعه حقيبة أو اثنتان على الأكثر ، يأتى فى موعده أو قبله قليلاً ، إذا أتت زوجته أو حبيبته معه لوداعه . تعانقا قبل الافتراق ، وطبع كلاهما قبلة سريعة على فم الآخر ، ثم يمضى إلى سبيله .

أما فى بلاد شمال البحر المتوسط ، وخاصة اليونان وإيطاليا فتأتى الأسرة لتوديع المسافر ، ويكثر الكلام لحظة الوداع ، وترتفع المناديل ، وتتسابق الدموع على الوجوه .

أما فى البلاد العربية بما فى ذلك مصر ، فتغلب القبيلة على ما عداها من التقاليد ، وتأتى القبيلة لتوديع ابنها المسافر ، وهو غالباً ما يكون مسافراً لأول مرة ، وتصحب القبيلة أطفالها ونساءها ، ويطول العناق وتسيل أنهر الدموع ، ومع كل سلام تنهال النصائح والتوصيات ، وتتردد كل لحظة عبارة خالدة – مش ناسى حاجة ؟ ؟ اوع لنفسك . !

أما اللقاء . . أى لقاء . فهو غالبا مشهد مبك ومضحك معاً ، فالعيون تتعلق بباب الخروج ، ثم يندفع الأشخاص كل على الآخر . وتكثر القبلات مع الدموع ، وتجد نفسك تبتسم فرحاً بعودة الحبيب إلى حبيبه .

فى اللقاء ، تنطلق المشاعر بلا ضوابط ، فى لحظة يتحول الكبير إلى صغير ، والمتزن إلى متهور ، تجتمع فى هذه اللحظة الأولى ، آلام الفراق الطويل وفرحة اللقاء الممتد .

كان يوماً لن أنساه . كنت عائدة من رحلتى وعلى الباب الخارجى

للمطار وقف مئات المنتظرين . استرعى نظرى فيهم سيدة فى حوالى الثلاثين ، أنيقة ، محتشمة ، لكن عينيها كانتا زائغتين تحملقان فى كل خارج ، وفجأة رأيتها تنطلق كالصاروخ ناحية الباب ، ووجدتنى مع عشرات آخرين ألتفت ناحيتها ، وإذا بها ترتمى فى أحضان رجل أنيق وقور ، ويطول عناقها وقبلاتهما ، بل يحملها من على الأرض ويدور بها فرحاً ، ويبعد وجهها عنه ثم يقربه ليمطره مرة أخرى بقبلاته .

واستمر المشهد دقائق ، شد إليه كل المنتظرين ، قابله بعض بالتعجب وبعض بالاستهجان . ولكنه فى الحقيقة كان عين الصدق .

لم يتمالكا مشاعرهما . ربما كان عمر الفراق بينهما سنين . وكان اللقاء صادقاً وجميلاً ولكنه . . . لم يكن فى مكانه . . .

ومن يومها قررت ألا أنتظر حبيباً قادماً فى المطار أبدا .

بركة دعاء الوالدين

هل جربت الإحساس بأنك مقدم على الموت ، وأنك شديد القرب منه ، لا يبعدك عنه إلا خطوات قليلة، ؟

لقد عشت أكثر من تجربة مارست فيها هذا الإحساس الرهيب ، وهذا طبعاً لا يعنى أن كل رحلات الطيران تقترن بالموت والخطر ، لا . . . بل إن الطيران فى قوائم إحصاءات الحوادث صاحب أقل نسبة من الخسائر

فى الأرواح بين المواصلات المختلفة .

إن الطيران فى قوائم إحصائيات الحوادث صاحب أقل نسبة من الخسائر فى الأرواح بين المواصلات المختلفة.

ولكن كثرة الترحال واختلاف الظروف ، تجعل أفراد (الطاقم) الطائر أكثر الناس تعرضاً لهذه التجارب .

وقد نكون على حافة الهاوية ولا يشعر أحد من الركاب أن خطأ ما قد وقع ، ولكنى مع باقى زملائى كنا نعيش دقائق حرجة ، لا نجد لنا فيها ملاذاً إلا ذكر الله ، ولا ينقذنا منها إلا هو وحده !

كانت رحلتنا إلى بلجراد ، مروراً بأثينا ، ووصلنا العاصمة اليوجوسلافية بسلامة الله . وكانت الرحلة فى جملتها لطيفة مريحة ، ونزلنا بمطار بلجراد واجتمعنا حول أكواب الشاى والقهوة (التركى) وساد بيننا جو مرح ، وما هى إلا دقائق حتى عدنا إلى طائرتنا وبدأ كل منا عمله . صعد الركاب وظهر النور الأحمر ، ربط الجميع الأحزمة وتحركت الطائرة ، ثم علا صوت المحركات الأربعة الكبيرة واشتدت سرعتها فى الجرى على الممر استعداداً للحظة الإقلاع ، إلا أنها ظلت تجرى بأقصى سرعة على الأرض حتى انتهى الممر ، ووجدنا أنفسنا نجرى خلال أرض خضراء ، وبدأت الطائرة تهتز بعنف ، وإذا بزميلى يجرى إلى بلطة الطوارئ ويهم بكسر باب الإنقاذ ، وفجأة تعرضنا لهزة بالغة العنف ، ثم توقفت الطائرة عن الجرى ، وبدأ صوت المحركات يهدأ . بلا وعى

جريت إلى كابينة القيادة . . .

* خير يا كابتن !

* خير ولا حاجة ، كل واحد مكانه .

وعدت بين الركاب ، أحاول أن أضع على شفتى ابتسامة برغم شحوب وجهى وإن كنت أظننى قد فشلت فى ذلك ، وعلا صفير سيارات الإسعاف والمطافئ حولنا . وجاء سلم الطوارئ . وفتحنا الأبواب وأنزلنا الركاب وبدأنا نسأل . . ماذا حدث ؟ ؟

طلب قائد الطائرة أن نلزم أماكننا وهبط ومعه مساعده لمعاينة المكان ثم دعانا للهبوط بعد دقائق ، وما إن لمست أقدامنا الأرض حتى ارتفعت أصواتنا جميعاً فى وقت واحد . (لا إله إلا الله) فقد رأينا عجباً هوة سحيقة تزيد على ثلاثة أمتار لا تبعد عن العجلة الأمامية أكثر من نصف متر . ماذا لو أننا اندفعنا هذه الأشبار القليلة ؟ ؟ (يا بركة دعاء الوالدين) .

ومرة أخرى كان مسرحها مطار دمشق :

كنت يومها مكلفة بخدمة ركاب الدرجة الأولى ، وانتهت رحلة الذهاب ، واقتربنا من المطار ، وظهرت علامات ربط الأحزمة ، وجلست على المقعد المخصص لطاقم الضيافة ، وهو ملاصق لكابينة القيادة . وفجأة سمعت صفيراً عالياً تنبهت على صوته كل حواسى . ثم سمعت صوت قائد الطائرة يطلب النجدة وسيارات الحريق من المطار . ومن داخل كابينة الركاب رأيت دخاناً أبيض كثيفاً يخرج ، وبدأ الركاب

يتركون مقاعدهم . وكان عليّ وقتها أن أحافظ على الهدوء حرصاً على توازن الطائرة ، وبدأت الأسئلة تنهال وليس لدى إجابة مقنعة سوى أننا اقتربنا من الأرض وسيتكشف كل شيء بعد لحظات .

وجريت إلى مقعدى قبل أن تلمس عجلات الطائرة الأرض من باب التحفظ ، وسريعاً توقفت المحركات فى نهاية الممر ، ونظرت إلى الأرض حولنا فوجدت ما ملأنى اطمئناناً وخوفاً معاً . . . سيارات الإسعاف والمطافئ ورجال الإنقاذ .

وخرج المهندس من كابينة القيادة ليفتح باب الطائرة بدلاً منى ليجدد جو كابينة الركاب ، وجاء سلم الهبوط العادى ، ونزل الجميع إلا نحن أفراد الطاقم ، اجتمعنا فى كابينة القيادة لنتبادل تهنئة السلامة ثم نسأل ماذا حدث .

وارتسمت ساعتها على وجه قائد الرحلة ابتسامة حملت كل المعانى الجميلة ، الاطمئنان والهدوء ، والشكر لله تعالى وقال :

* يبدو أننا سنقضى ليلة أو ليلتين فى عاصمة الأمويين ، فقد احترق مخزن الزيت (الهيدروليك) وأمكن إطفاؤه ذاتياً فى أثناء الهبوط والحمد لله ، ولكن يحتاج الأمر إلى وقت لإصلاحه . ودعانا للهبوط معه .

وتحت جناح الطائرة وقفنا نستنشق هواء بلا رائحة (الهيدروليك) ونتلقى التهنئة بالسلامة .

ولما ملأت رئتى نظرت إلى السماء وأنا أردد (يا بركة دعاء الوالدين)

رأيت الله

وأنا فى حوالى الثامنة من عمرى قرأت فى كتاب المطالعة قصة عنوانها (أرنى الله) . وهى قصة فتى صغير يريد أن يرى الله . وبرغم مضى أعوام طويلة على هذه القصة فـإنى كثيراً ما تذكرتها وأنا أحلق فى فضاء السماء . وتمنيت لو تمكنت من دعوة فتى القصة الصغير إلى صحبتى لكى يرى الله . فقد رأيت أنا جلال الله .

* * *

رأيت الله فوق غابات أفريقيا بخضرتها اللانهائية، فمهما امتد بصرك فهو عاجز عن الوصول إلى نهاية لون العطاء والخصب والحياة (الأخضر) .

وبين الحين والحين ، وعلى خط الاستواء تجد قمم جبال بيضاء ، نعمْ قمم الثلج فى غابات خط الاستواء .

رأيت الله فى خضرة العشب على التلال الراقدة حول مدينة (عنتيبى) ورأيته فى حمرة الورود الصغيرة نجوماً فى سماء الخضرة الرائعة .

وتغسل السماء ذنوب الأرض بقطرات من المطر ، فتتجدد على صفحاتها الحياة ، ويأتى الماء حاملاً الخصب والنماء من فوق قمم (جبال كلمنجارو) البيضاء . ثم أرى تحتى أنهار العنبر تجرى ثم تجتمع فى واحد يسرع بها الخطو ليقطع نسيج الصحراء المقفر ويصنع الخضرة والرخاء .

ومن ارتفاع آلاف الأقدام من الأرض أرى وادينا الحبيب ممتدا ، وبرغم ضيق امتداده فإنه كثير الخير ، تحتضنه الصحراء المترامية ، الصحراء الغربية وكأنها ذراع أيسر ، والصحراء الشرقية وقد أسندت يمناها على البحر الأحمر (وأنت تستطيع أن ترى الوادى والبحر فى أثناء طيرانك) هكذا رأيت الله .

* * *

رأيته فى البحر الممتد لا يدرك نهايته البصر ، ولا يتخيل عمقه إنسان ، رأيته موجا متلاطماً عالياً هائجاً يعلن الثورة على كل شيء . ثم رأيته هادئاً ناعماً مستسلماً للسفن يقطع سبائك فضته مخلفاً وراءه الزبد الأبيض (وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) . رأيته فى التقاء البر والبحر متعانقين (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) ، رأيته فى الأمواج مؤكدة قوتها ، وفى الأرض مؤكدة صلابتها ، رأيته مدا وانحسارا .

رأيته فى الإسكندرية وأثينا وبيروت وعدن وجدة .

رأيته يعطى الحركة والحياة أرضاً لولاه لباتت ساكنة هادئة ، رأيته فى السفن ترسو وترحل وتفرغ وتحمل .

* * *

رأيته جزراً مقفرة تحوطها المياه المالحة من كل جانب ، رأيته جبالاً نحاسية اللون وعرة السطح ، ثم رأيته مراعى فسيحة تمرح فى مروجها

الدواب من كل لون وجنس .

رأيته فى جزيرة قبرص . فهى جزيرة جبلية فى جملتها ، تظهر الأعشاب فيها على استحياء بين الحين والحين ، أعشاب جافة فقيرة تأخذ من قسوة الجبال أكثر مما تأخذ من رقة الخضرة ، وإذا اقتربت الطائرة من الأرض لمحت قطعان الأبقار والأغنام ترعى معلنة انتصار الحياة برغم قسوة الطبيعة .

سبحان الله . بين هذه الصخور يعطى الحيوان والإنسان الحياة ، كما يعطيها فوق رفرف من الخضرة على ضفاف الأنهار .

* * *

رأيت الله فى شمالى أوربا فى براغ وكوبنهاجن وموسكو ، رأيت كل شيء أخضر فى الصيف ، ثم رأيته أبيض فى الشتاء ، فى الصيف لا تنقطع الخضرة عن عينيك أبداً . فهى نشيد طويل طويل . . . وسيمفونية رائعة . . . وفى الشتاء هى جليد يكسو الأرض وما عليها ، حتى الشجيرات الصغيرة وأعمدة الإضاءة تكتسى بالجليد . أما الناس فقد وضعوا أنفسهم داخل الملابس الجلدية أو الصوفية الثقيلة ، فلا تظهر منهم إلا العينان والأنف وبرغم هذا فمن نشاطهم تستشعر دفء الحياة : فى الصيف ترى البحر والأرض ، وفى الشتاء ترى الجليد يغطى الاثنين ويمتد إلى البعيد البعيد .

رأيت الله فى قمم جبال الألب الشامخة وكأننى أرى شيخاً عجوزاً

اكتسى بعباءة بيضاء ، ممسكاً بيده مسبحة صغيرة ، وأكاد أسمع نشيده وترتيله ، وتحت أقدام الجبال ترقد البحيرات والأنهار تدعو عشاق الحياة إلى الحياة . . وتدعو عشاق الله (ليروا الله) .

* * *

ثم رأيت الله فى الصحراء (سبحان الله) تجد نفسك تنطقها بلا وعى وأنت تراقب الرمال المترامية ، من أين أتت وإلى أين هى ذاهبة .

وبرغم اختفاء مظاهر الحياة تقريباً منها فـإنك لا تملك أن تمنع نفسك عن التسبيح باسم الحى الذى لا يموت ، ففى اتساعها إطلاق للفكر ، وفى وحشتها طلب للائتناس بالله ، وفى الموت على سطحها إدراك لمعنى الحياة ، وبضدها تتميز الأشياء .

وأنت إذ تنظر لألأها من بعيد تراها (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده) .

* * *

فى مدن العالم رأيت الله .

رأيته فى كل البشر ، البيض والسمر ، والحمر والسود ، والصفر . رأيته فى زحام الحياة وتكالب الناس عليها ، رأيته فى الغربة والألفة ، رأيته فى المبانى الشاهقة ، فى الطرقات المعلقة والمتشابكة ، رأيته فى السعى والكد . رأيت الله فى الإنسان . رأيت الإنسان يعمل ، يكسب ويتمتع ، يرتقى ، يكسر قيود الطبيعة ، وينطلق مزهوا سعيداً يعب من

حلاوة الدنيا ومتعها ، ويستزيد فيعطى ، ويطمع فيلبّى ، ولكنه كثيراً ما ينسى . (إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) هكذا رأيت الله .

رأيته جميلاً مبدعاً صانعاً رائعاً ، خالقاً قادراً ، مصوراً مزيناً الحياة لخلقه فى الأرض .

وصدق الله العظيم إذ يقول : (قل سيرو فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) .

الله فى عون المشهورين

هل أنت مشهور؟ ؟ إن لم تكن مشهوراً فأنت طبعاً تود هذا حتى لو قلت إنك لا تكره فى حياتك إلا الشهرة .

فالشهرة شيء جميل يشد إليه كل البشر . فمن من الناس لا يريد أن يعرفه كل الناس ، ويشير إليه الجميع بأنه قد أتى وبأنه قد غدا .

ولكن من يصنع الشهرة . هل هو الشخص نفسه أو الناس من حوله ؟ فى ظنى أن الناس هم الذين يخلقون شهرة المشاهير . فلو لم يحيطوهم باهتمامهم ورعايتهم ، ويعطوهم من تفكيرهم ومن وقتهم بل من مالهم ما أصبح هؤلاء مشاهير ، وينطبق قولى هذا أكثر على المشاهير من الممثلين والمطربين والموسيقيين وأبطال الرياضة ورجال الإعلام .

وفى رأيى أن المسألة نسبية ، فالشخص الذى قد يكون مشهوراً

بالنسبة لك قد يكون مجهولاً بالنسبة لى تبعاً لاهتماماتى ومزاجى الشخصى ووقتى الذى أعطيه تتبع الحياة العامة ، لآخذ منها ما أريد ، وأدع ما لا أريد .

ولكن هل يدرك المشهورون هذه الحقيقة ، أظن لا ، فبمجرد أن يظهر لأحدهم صورة فى جريدة صباحية ، أو تقدم عنه فقرة تليفزيونية تستغرق دقائق اعتقد أنه أصبح مشهوراً .

وماذا ينتظر المشهور من الناس ؟ ؟ أو بمعنى آخر . . ماذا ينتظر المشهور من الشهرة . . . أو دعنا نقل ماذا ينتظر الذى يريد أن يكون مشهوراً من الناس ، إنه يريد ابتسامة واسعة على كل وجه يطالعه ، وينتظر معاملة خاصة من كل من يتصل بهِ ، أو يلقاه فى طريقه ، وباختصار ينتظر اهتماماً زائداً من كل من حوله .

من واجب المضيفة أن تعطى كل راكب اهتماماً زائداً أو هكذا تعطيه الإحساس ، وهى دائماً فى اعتقادى على استعداد لكى ترضى غرور كل شخص ، ولكن فى حدود المعقول .

فماذا عندما تقابل المضيفة مشاهير القوم ، الوزراء ، الزعماء ، الممثلين المطربين . أىّ مشهور .

فى دفترى عشرات الأسماء . بعضها أتحاشى ذكرها صراحة ، وبعضها الآخر أستعيد ذكرى لقائه مع كل الفرحة والرضا .

من الشخصيات التى لن أنسى فيها الخلق الطيب والمجاملة الكريمة

والبشاشة التى تدل على صفاء النفس . أحد نواب رئيس الجمهورية . كان على سفر إلى برلين الشرقية وبرفقته زوجته ، وبرغم طول مدة الطيران التى زادت على أربع ساعات متواصلة فـإنها مضت سريعة سادها جو الأسرة .فبابتسامة واسعة راضية ، وكلمة شكر متوددة ، قبل منى كل ما قدمته إليه . . لم يطلب أى طلب استثنائى ، ورفض كل ما عرضته عليه من خدمة يحس أنها ترهقنى ، على باب الطائرة ، صافحنى بود كبير قبل أن يدخل إلى مقعده .

وعلى السلم صافحنى شاكراً ممتنا مودعاً إذ هو غادرنا فى مطار برلين . يومها أعطانى إحساساً عميقاً بأن الإنسان لا يكون عظيماً بوظيفته أو بمركزه وإنما بخلقه ومعاملته .

شخصية ثانية تركت اسمها بارز الحروف فى ذاكرتى ، هو الدكتور عبد العزيز كامل وقد أفردت له صفحة من صفحات مذكراتى .

كبير ثالث لن أنسى لقائى به وإن كنت لن أذكر اسمه .

عندما صعد سلم الطائرة وقابله الجميع بابتسامة ترحيب قابلها بنصف ابتسامة متجهاً لفوره إلى مقعده . عندما كنت أعرض عليه تقديم شيء من الشراب والطعام كان يختار منها الغالى الثمن والنادر الوجود ، متوهماً أن هذا النادر الغالى من ضمن أمارات عظمته وأبهته . كان يقابل إكرامى له بإيماءة خفيفة . ولم أسمع صوته ينطق ولو بكلمة واحدة .

وقرب نهاية رحلتنا قدمت له مجموعة من هدايا الشركة الرمزية

وضعتها على صينية مستديرة وتركت له حرية الخيار . أيها أفضَل ، وكانت المفاجأة التى أضحكت يومها كل أفراد طاقم الرحلة ، فقد جمع ضيفنا العظيم كل ما عرضناه عليه من هدايا بل سأل عن زجاجات الخمر الصغيرة التى تعطى على سبيل الهدايا أحياناً ، وكأنه أحس بحرج فأضاف أنها طلب ابنه الصغير منه .

حاولت طوال الوقت أن أرضى ضيفى عملا بقول مأثور (الزبون دائماً على حق) وعندما هم بمغادرتنا وقف الجميع لتحيته ، ولكن أحداً لم يستطع أن يرسم الابتسامة على شفتيه .

ولن أنسى تعليق أحد زملائى بعد مغادرة هذا الضيف لنا ، فقد قال (الأصل يونّس صاحبه . !) أى يسير معه أينما ذهب .

يوم آخر ما زلت أذكره . . كنت أحمل الحلوى لتوزيعها على الركاب قبل الإقلاع من باب التحية ومن باب مساعدة الأذنين على تحمل تغيير الضغط الجوى . ومع الابتسامة طفت بالجميع ، وفى الصف الأخير استوقفنى وجه أعرفه ، وفى لحظة تذكرت أنها (. . .) مذيعة التليفزيون المعروفة ومقدمة البرامج ، وبإيماءة خفيفة قدمت لها التحية .

و بما أنها تجلس بين الركاب (غير المشهورين) و بما أن تذكرتها عادية درجة سياحية كباقى خلق الله . فلم يكن المقام مناسباً لمجاملة أخرى تعطى من حولها إحساساً بأنهم (مش قد المقام) .

ولم يرض هذا الغرور صاحبتنا

* أنا بردانة
* اتفضلى بطانية
* متى نصل
* بعد ساعة
* أف حاجة تزهق

وتركتها إلى ما هو أهم من تنهداتها

وعندما ظهر النور الأحمر مرة أخرى مررت بالجميع لأتيقن ربط حزام المقعد ورأيتها متعثرة فى ربط حزامها فساعدتها ، وشكرتنى ثم قالت :

* يبدو أنك تتابعين برامج القناة الثانية .
* فعلاً . . فتليفزيونى لا يعطى إلا إرسال القناة الأولى .

* * *

وفى هذا العام تقريباً عام ١٩٦٩ كانت موجة الأصوات الغنائية يركبها « فهد بلان » حتى أصبحت موضة ذلك العام .

كان كل الناس يرددون « واشرح لها » وكانت « هاها . . . هاها » أشهر المقاطع التى نسمعها فى كل مكان .

كانت رحلة خاصة . وعدنا إلى القاهرة بفوج كامل لم أكن أعرف عنه شيئاً إلى أن صعدوا إلى الطائرة فرأيت بينهم « فهد بلان ، ومحمود شكوكو . وإسماعيل يس » ، ومجموعة من المطربات ، وعدداً من

الراقصات وفنانات الصف الثانى .

وعلمت منهم أنهم كانوا فى مهمة فنية (إحياء عيد ميلاد) إحدى الأميرات العربيات .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها الفنان (العملاق) « فهد بلان » وكم كانت دهشتى كبيرة عندما وجدته شديد الحياء إذا ما تحدث احمر وجهه خجلاً ، وقد أطرق ببصره لناحية الأرض . خفيض الصوت هادئ النبرات .

أما المرحوم إسماعيل يس – وكانت ظروفه الصحية وقتها غير طيبة – فقد وجدته كالغريب وسط هؤلاء الممثلين مرحاً وحيوية . وضاعفت اهتمامى به فانس إلىّ ثم أخرج من جيبه مجموعة من العملات الأجنبية المختلفة الجنسية وقال ببساطة شديدة :

* عايز بدول سجاير

(وحسبت الحسبة) وأعطيته خمس علب سجاير ، وكان شديد الفرح بها وقال لى :

* كنت ناوى أدى الفلوس دى للعيال تلعب بها

أما الفنانات فقد ازداد إشفاقى عليهن بعد أن اكتشفت المجهود المضنى الذى يبذلنه استعداداً للوقوف على خشبة المسرح كل مساء ، بحيث لا يرى الجمهور وجهاً متجعداً ولا أجساماً مترهلة ، ولا شعراً أشعث وقلت ساعتها (الله يكون فى عون المشهورين) .

ثوب لكل مناسبة

يقولون إن الحياة أخذ وعطاء ، ولا نأخذ من الهناء إلا بقدر ما يصيبنا من شقاء . ولا ننال من النور إلا بقدر ما نعانيه من الظلام . ولكنى أحس أن حلاوة الحياة ونحن نعطى تفوق مئات المرات حلاوتها ونحن نأخذ . وقد يكون هذا طابعاً مميزاً للمرأة ، فهى مخلوقة تعشق العطاء بطبيعتها ، لا تمل تجدد صوره وأشكاله ، ولا تنتظر عنه شكراً ولا جزاء . إنما يأتيها الشكر من داخلها عندما تحس أنها أعطت ما تريد من يستحق العطاء .

قد يكون هذا هو أحد أسباب تفضيل الجنس اللطيف للعمل فى مهنة الضيافة وخاصة على الطائرات . فالراكب المعلق بين السماء والأرض ، يبحث حوله عن كلمة أمل ، أونظرة اطمئنان ، من السهل عليه أن يجد منها الكثير فى جعبة مضيفته المبتسمة دائماً ، المستعدة دائماً ، أن ترفع عنه رهبة الموقف ، أو الخوف الذى يتملكه من المجهول . إلى أقصى الحدود هى مستعدة لذلك بشرط أن يكون فى مكانه الصحيح .

وللمضيفة على الطائرة واجب محدد ، عليها أن تؤديه بحكم وظيفتها ، وعليها كذلك واجب واسع الحدود ، عليها أن تؤديه بحكم إنسانيتها ، ثم عليها واجب ثالث تؤديه بحكم الظروف المتغيرة والمتجددة حولها كل يوم ، بحيث تتكيف طبقاً لما حولها ، كالغرس الذى يأخذ طبيعة المناخ والتربة

التى يغرس فيها ويعطى عطاء هو من خلق البيئة والظروف المحيطة .

وباختصار فإن عليها أن تكون قريبة من كل راكب معها ، تجعله يشعر وكأنه فى بيته ، وتعطيه وبسخاء ما يعيد الرضا إلى نفسه .

فمثلاً وضعتنى الظروف يوماً فى سرادق عزاء طائر علىّ أن أمسح دموع الباكين ، وأقدم كلمات العزاء ، وأنا على الطائرة .

ووضعتنى يوماً ثانياً فى مستشفى تنقصه الممرضة ، وكان علىّ أن أتخيل نفسى بالملابس البيضاء وأن أصبح ذات مهنتين وذات رداءين .

وفى مرات كثيرة وجدت نفسى أمًّا . . . أحمل طفلاً علىّ أن أدلله ، وأعطيه الحلوى ، وأمسح عنه دموع الخوف .

وفى أوقات كنت أقوم بدور هيئة الاستعلامات ، وأعطى ملخصاً لأهم الأنباء والأحداث ، وحالة الجو ، ونتائج دورى كرة القدم للمبعوثين العائدين بعد غيبة شهور عن مصر ، ولا تلهمهم لهفتهم الصبر حتى يصلوا إلى بيوتهم ، بل ينتهزون فرصة لقاء أول مصرى وتنهال أسئلتهم .

وهل تتصور أنى مرة وقفت أغنى على الطائرة ؟ ؟

حكايات . . وحكايات . لا بأس من استعادة بعضها .

هذه القصة أتذكر تفاصيلها وأسماء أبطالها :

أقلعت بنا الطائرة من مطار الغردقة فى طريقها إلى القاهرة ، ورأيت بين الركاب مصابا يرتدى الملابس العسكرية .

ورأيتنى أتجه نحوه لإحساسى بأنه أكثر الركاب حاجة إلىّ ، اقتربت منه لأراه وقد اختفى كل رأسه تحت الأربطة البيضاء ، ولم يعد يظهر من وجهه إلا الأنف والفم وعينان دامعتان . كان فى نظرته استسلام لكل شيء ، لأى شيء، أما شفتاه فلم تكفا عن الحركة وإن كان أحد لم يسمع له صوتاً . جلس فى هدوء على المقعد الصغير أو هكذا أراد الله له أن يجلس .

أحسست بالعجز أمامه للحظة . فماذا أستطيع أن أصنع أنا وأمامى نصف حى ونصف ميت . وما كنت أدرى ما الذى يستطيع أن يضيء له شمعة جديدة فى أمل حياته ، أو ماذا يقترب به من النهاية ، ووجدتنى أعبر عن عجزى فى صراحة .

* أقدر أقدم لك حاجة ؟ ؟

وحملق فى وجهى بنظرة عجيبة لن أنساها ، فقد كان فيها خليطٌ عجيب . كان فى نظرته الألم والراحة ، والأمل واليأس ، كنت أستمع من صمته صرخات ألمه ، وآهات توجعه ، وكنت ألمح الرضا يرقد تحت دموع عينيه المحتقنتين ، ثم جاءنى الرد على سؤالى من شخص كان يجلس إلى جانبه . يقدر يأخذ كل حاجة سهلة المضغ وسهلة الهضم وشعرت ساعتها بالراحة فقد جاءتنى فرصة العطاء . إلا أن السؤال جاء بالرغم منى

* حضرتك ؟ ؟

* أنا الدكتور أحمد أبو العينين المشرف على سيد وهو منقول لمستشفى في مصر .

* هو مصاب في عمليات ؟ ؟

* يعني

وفهمت أنه لا يستطيع أن يمضي في الحديث إلى أبعد من هذا . في سرعة عدت إليه ومعي أكواب عـدة من العصير . جوافة ، مانجو ، طماطم ، ثم قطع كثيرة من (الجاتوه) بدأت أساعده في تناول طعامه ولكن طبيبه أعفاني من هذه المهمة . ودعاني للعودة إلى عملي .

على عجل أنهيت كل ما لدى من مسئوليات تجاه كل الركاب ، وعدت إلى (سيد) وجدته مقبلاً على كل ما أعطيته مرحباً بالمزيد ، وبدأ يتحدث ، كان كلامه غريباً فهو بلا شك يشعر أنه قاب قوسين أو أدنى من الرحيل .

* فكرتيني بأمي . . . لما كنت أرجع في الإجازة كانت تحب تحط لي الأكل في بقي بإيدها . . . أول مرة أشرب جوافة أو طماطم . . . طول عمري كنت آكلها . . . كتر خيرك . . . تعبتك معايا » .

وقد تصور أني أنا التي عصرتها .

كان وجه الطبيب ينطق بأشياء غريبة ، ربما كان سعيداً لأن مريضه بدأ يبتسم للحياة ، حتى لو كانت ابتسامة من خلال القطن والشاش ، وربما كان قلقاً يستعجل وصولنا إلى القاهرة ليسعف مريضه .

غير أن عينيه لم تتحولا عن وجه (سيد) . وعندما اقتربنا من مطار القاهرة طلب أن نتصل بالإسعاف لتنتظره السيارة عند سلم الطائرة .

وانتهت رحلتنا وغادر الجميع مقاعدهم إلا (سيد) والدكتور أحمد الذى اطمأن بنفسه إلى وجود سيارة الإسعاف والنقالة . ثم دعا أحد الرجال لمساعدته فى نقل الجريح . وساعتها انطلق صوت سيد بخوف ورجاء .

* والنبي يا بيه . . . «خلى الست تأخذ إيدى معاك لغاية الأرض» أنا حاسس أنى راح أطيب لو هى أخذت إيدى . !

وتركته يستند على كتفى وذراعى وقد أمسك بيده الأخرى كتف الطبيب وعلى باب سيارة الإسعاف أمسك بكفى . كنت أظنه يريد أن يصافحنى ولكنى فوجئت به يرفعها أمام وجهه ليقبلها .

ونزعت يدى منه برفق وسرعة لأمسح دمعتين جرتا على وجهى ، وأنا أعبر له عن أمنيات السلامة والصحة .

وهذه هى قصة غنائى على الطائرة وفى أثناء تأدية عملى .

كنا عائدين من الأقصر ، وكان ركابنا أربعين من الشباب الأمريكيين فى سياحة لزيارة معالم مصر القديمة . تناولوا عشاءهم فى سرعة ثم وجدناهم ينطلقون بأغان جماعية خفيفة مرحة .

دعونى وزميلى للاشتراك معهم فى الغناء المرح ، فاشتركنا معاً بهدف (ضبط الإيقاع) فلم تكن لى ولا لزميلى معرفة بغنائهم .

وفى غمرة هذا المرح فوجئنا بهم وقد التفوا حولنا مهللين منادين بأن نغنى لهم بعض الأغنيات المصرية .

وسقط فى يدى ويده .

حاولنا أن نتفق على أغنية نعرف نحن الاثنين كلماتها . ولم نتفق إلا على كلمات (تحت الشجر يا وهيبة ياما كلنا برتقال) .

وكانوا سعداء بغنائنا . يرددون معنا اللحن ويصفقون ، ولم ينقذنا من المضى فى غنائنا سوى ظهور النور الأحمر (ممنوع التدخين– الرجا ربط حزام المقعد) وإلى وقتنا هذا لا أعرف : هل لوائح الشركة تسمح للمضيف والمضيفة بأن يقفا ليغنيا معاً وسط الركاب . . . أو لا ؟

هكذا كان علىّ أن أرتدى ثوباً جديداً لكل مناسبة .

ليلة مع الهيبى

الليالى السعيدة . . . والأيام الحلوة . . . والحوادث الكبيرة . . . والنجاح الرائع . . . والخسائر الفادحة . . . كل هذه غالباً ما تكون بصمات على صفحة حياة كل إنسان ، يذكرها بتفاصيلها ، وكثيراً ما يرددها مهما بعدت بها الأيام .

كذلك الحوادث الطريفة ، ربما كانت قليلة فى حياة الإنسان ، ولكن الطرافة فيها تجعل لها خلوداً فى ذاكرته ، وملازمة لحكاياته التى

كثيراً ما يرويها لأصدقائه ، وفى تلاوة الطريف من الذكريات متعة يعيشها صاحبها مرتين . وفى جعبة أى شخص تعود السفر والترحال كثير من هذه الحكايات الطريفة كما فيها كذلك ذكرى كثير من الأيام والليالى التى لا تنسى .

بين شباب الهيبى ووسط غابة واسعة ، وفى درجة حرارة تحت الصفر ، قضيت ليلة لن أنساها . قضيتها مفتوحة العينين أنظر من خلال شق صغير فى جدران الكشك الذى كنت أنام فى داخله مع زميلتى ، كانوا أنصاف عرايا . . سكارى ، يعدو كل منهم خلف الآخر ، وكأنهم قرود فى إحدى الغابات الاستوائية ، يصرخون ولا أدرى لماذا ؟ ؟ وإذا ما أتعبهم الجرى والصراخ استلقوا أرضاً . . ناموا الواحد إلى جانب الآخر . . . طولاً وعرضاً وربما جعل الواحد منهم من ساقى زميله وسادة تريح رأسه من ضجيج الصراخ والخمر . . . لم يكن سهلاً أن تميز الرجل من المرأة . فأزياؤهم متقاربة ، شعورهم تنسدل خلف ظهورهم ، وحول وجوههم فى فوضى طبيعية . فجأة تنطلق أغانيهم . لا تدرى ماذا يقولون ، ولكنك تحس وكأن واحداً فقط هو الذى يغنى وإن كان له مائة حنجرة .

مع خيوط الصباح الأولى راحوا فى نوم عميق ، وكأنما سرت العدوى إلينا . . . وبرغم البرد الشديد والفراش الخشن والغطاء الوهمى ، فقد فرض النوم علينا سلطانه لنستريح بعد هذا اليوم الملىء بالأحداث .

ولم يمض أكثر من ساعتين . . . إلا عادت الضجة من جديد تملأ المكان . . . كانوا أكثر نشاطاً من الليل ، وكأن هذه الساعات القليلة أضافت إليهم شحنة من القوة ، وكانوا يلفون حول الكشك الذى ننام فيه ويدقون عليه بأيديهم وهم يصرخون ، وتملكنى وزميلتى الرعب وقمنا نصلح من شأننا ونربط حقائبنا انتظاراً لأى مفاجأة ، ولكننا لم نجرؤ على الخروج قط .

ولما هدأت الضجة بعض الشيء . . لممنا أطراف شجاعتنا لنفتح الباب وننادى زملاءنا وكانوا يقيمون فى كشك آخر قريب منا .

وبحذر شديد فتحنا الباب وألقينا نظرة إلى الخارج . وكانت مفاجأة عندما سمعنا من يقول لنا (صباح الخير) . لقد كانا ، قائد الرحلة وأحد المضيفين جالسين على حجر صغير عند الباب .

* قاعدين كده ليه . . . ومن إمتى ؟ ؟
* بقالنا ساعتين . من ساعة العفاريت دول ما صحيو ، خفنا يفتحو عليكم الباب ! !

واجتمع الكل يبحث عن حل . ونحن نستعيد ذكريات ما حدث فى ليلة الأمس ونتساءل : هل يعنى تعطل الطائرة فى مطار بلجراد أن نخوض هذه التجربة ؟ ربما لوكنا فى أى يوم آخر غير هذا اليوم ما جرى كل ما حدث ، فقد كان هذا اليوم هو موعد افتتاح معرض زغرب الدولى والذى بسببه تعذر العثور على حجرة فى أى فندق فى المدينة حتى لو من

فنادق الدرجة الرابعة المخفضة . .

ولا نملك أنفسنا من الضحك ونحن نتذكر الليلة الماضية ، عندما توزعنا على مقاعد صالة الترانزيت حتى منتصف الليل . وكيف أن النوم قد غلب بعضنا وكان الباقى يضحك من منظره ، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار سريعاً بدأت رحلة العودة إلى المطار مرة أخرى فقد وصل من القاهرة المهندس الذى سيتولى إصلاح الطائرة . .

وفى السيارة الفخمة قضينا وقتاً يزيد على الساعتين وهى تشق طريقها طويلاً . . . طويلاً . . . ضيقاً وسط الغابة الكثيفة . ويصطدم سقفها الأعلى وفروع الأشجار فتحدث ضوضاء كبيرة . فقد كنا نقيم فى هذه الليلة وسط غابة قريبة من بلجراد .

ولم يكن هناك حل آخر لمشكلة مبيتنا تلك الليلة على غير هذا الوجه ، وكانت ليلة لا تنسى قضيناها مع الهيبى .

وإن كنت لم أشعر بالغربة . . فقد كان معنا أولاد من بلدنا .

« عريس » على الهوا

كثيراً ما يطمع الراكب فى المضيفة . هذه حقيقة يؤكدها الواقع المرير فى حياة كل مضيفة . وأنا لا أعرف لماذا استقرت هذه الفكرة لدى راكب الطائرة عن المضيفة .

ربما للابتسامة الدائمة على شفتيها .

ربما لزيها الخاص .

ربما لأنها دائماً تلبي رغبات الركاب وهم على الطائرة ، بابتسامة معلقة على وجه عليه كثير من علامات الرضا .

ربما كان جو الغربة يغرى باقتراب المسافات بين الناس ومن بينهم الراكب والمضيفة .

ربما الخوف . . . خوف الراكب ومحاولة المضيفة أن تشيع جو الأمان والاطمئنان عند الخطر .

وربما كانت حالة الراكب أشبه ما تكون بحالة المريض . لذلك تراه فى كثير من الأحيان متعلقاً بالممرضة لضعفه وللمسه حنانها .

وفات الراكب أن الأصل فى المضيفة أن تكون فضلاً على جمالها ، كريمة ، نظيفة ، تماماً مثلما تكون فى بيتها مع ضيوفها تقدم لهم أحسن ما لديها بود وترحاب ، وتظهر فى أحسن صورة ، أناقة وعطراً وبشاشة ، وهذا ليس موقفاً خاصا بقدر ما هو تقليد من تقاليد الضيافة الأصيلة الكريمة .

* * *

كانوا مائة حاج فى طريق عودتهم من جدة إلى القاهرة ، وكان زميلى فى الداخل يعد لى ما أقدمه لهم ، وقد بدا عليه الإجهاد ، وبدأ يزمجر . وأصدر قراراً بضرورة كتابة مذكرة للمسئولين يطلب فيها مضاعفة أفراد

طاقم الضيافة فى رحلات الحجاج ، فإن اثنين لا يقويان على خدمة مائة حاج لمدة تزيد على ساعتين .

لكنى كنت أكثر منه حيوية ، ذلك لأن دعوات الركاب وكلمات الشكر المتكرر كانت تمسح عنى أولاً فأولاً آثار الإجهاد والتعب .

أوشك الجميع أن ينتهوا من تناول الغداء ، ولكنى كنت بينهم دائماً .

* كباية ميه من فضلك
* قرص أسبرين
* ممكن قهوة بن تقيل ؟ ؟

وفى كل مرة أدخل فيها إلى زميلى بطلب جديد كانت تزداد زفراته إلى أن دخلت مرة ، فوجدت معه أحد الركاب وقد انشغلا بحديث هام فأخذت طلبى وانصرفت

إنها سعادة حقيقية تلك التى تحسها وأنت تدخل السعادة إلى قلب رجل أو سيدة فى خريف العمر ، عائدين من رحلة مجهدة شاقة ، جميل أن تمضى معهم فى حديث عن مشاعرهم وانطباعاتهم .

جميل أن تسمع الكلمات تخرج متدفقة من شفاه الحجاج تصف لك جمال الروضة الشريفة وانطباعاتهم فى (حضرة النبى الكريم) ﷺ .

جميل أن ترى الدموع تنساب عند الحديث عن ذكريات اللحظة الأولى لرؤية الكعبة المشرفة . رائع أن تسمع أمنيات العودة وقد اختلطت بأمل طول العمر ، فتختنق الكلمات ، وكان الراكب ما زال واقفاً معه ، ولكنه

طلب منه العودة إلى مقعده ، على أن يترك الأمر له . . أى أمر ؟؟؟

* أصله ياستى طلب إيدك منى ، إيوه ، الراكب ده عريس ، ولما قلت له إنك مخطوبة قال إنها (حجة) ، وأصر على أن يفاتحك ، فأعفيته من المهمة . . . و . . . وفجأة وجدناه بيننا . . . .

* إحنا قربنا على مصر . . .

والتفت إليه ، وقبل أن أنطق بحرف واحد أخرج من جيبه دفتر شيكات وقال بلهجة ابن البلد .

* ألف جنيه حلاوة كلمة إيوه

ولكنى أخرجت أنا الأخرى من حقيبتى بطاقة دعوة لحضور عقد قرانى وقلت له . .

* يسرنى أنك تكون موجوداً ياحاج علشان تحصل لنا البركة .

وتركته وعدت لباقى الركاب أطمئن إلى أن أحزمة المقاعد مربوطة استعداداً للهبوط . . . . .

حبيبتى يا مصر

ما السفر ؟؟

هل السفر هو الانتقال من مدينة لأخرى أو من قارة لأخرى ؟ . . .

هل هو تغيير المكان والصحاب ؟ . . . .

هل هو الالتقاء بوجوه جديدة وأشخاص غير الذين تعرفهم وتألفهم ؟ . . .

هل هو ركوب متن الهواء أو البحر عبر مساحات شاسعة من الأرض ؟ . . .

هل السفر حقائب تحزم وتعد ، وأماكن تحجز ، وتذاكر تحمل اسمك ، ومكان رحيلك ووصولك . . . ؟

هل السفر حفل توديع ثم حفل استقبال . . . ؟

هل السفر هو كل هذه الأشياء . . . ؟

. . . وإن كانت الإجابة هى (لا) . . . فما السفر؟ ؟

قد لا يملك الإنسان أمر نفسه فى كثير من الحالات ، ولكن القول بأن الإنسان لا يملك من أمر إرادته شيئاً فى كل الأحايين ، قول لا ريب فيه إذا تعلق بالمشاعر والإحساس .

فقد يطلب منك أن تغادر مكاناً لآخر بحكم عملك أو وظيفتك ، وقد لا تملك الرفض أو الامتناع ، ولكن هناك أجزاء منك لا يستطيع أحد أن يأمرها بالانتقال أو أن يطلب منها السفر إن أجسادنا تضم قلوباً وأرواحاً لا يملكها إلا أصحابها والطاعة تكون فيما يملك الإنسان ، ولكنها تشق عليه فيما لا يملك .

فكم من مرة غادرت القاهرة وقلبي فى لهفة على حبيب تركته وديعة لديها ، كم من مرة غادرتها ، قاهرتى القديمة بشمسها الدافئة شتاء

والحارقة صيفاً ، وقلبي معلق على مآذنها ، وتخفت دقاته ويضيع نبضه وسط ضجيج شوارعها وميادينها :

بلاد بها حل الشباب تمائمى   وأول أرض مسّ جلدى ترابها

كم غادرتها ، قاهرة المعز ، وأنا أجرى وألهث . فقد تعطلت بنا السيارة بسبب تراكم مياه الأمطار ، وكاد موعد تحليقنا يحين ولم نصل إلى الطائرة بعد .

وبرغم هذا . . فى كل مرة ، قبل أن أغادرها يغسل رذاذ أمطارها الناعمة كل ما غلا به صدرى من غضب أو ضيق .

كم من مرة تركت أحضانك الدافئة ، مدينتى ، وعيناى مازالتا معلقتين فى أسى على أكوام من المهملات والقمامة فى شوارعك التى تئن فى سنوات الضيق والحاجة إلى الأهم تحت أثقال المركبات ، تاركة فيها دائماً جروحاً نسميها فى لغة الحضارة والمدنية (مطبات) . ومع كل مرة تسقط فيها السيارة فى أحد هذه المطبات أفيق من تفكيرى لأتذكر أجمل أغانى أيامى من حروف اسمك .

حبى لك مدينتى هو أعظم حب فى حياتى ، وقد يفتُر حبى لشخص أحياناً ، ولكن حبى لوطنى خالد أبداً .

قصيدى فى هواك على لسانى هو أخلد نشيد فى أيامى ، برغم سخطى ، لما أصابك ويصيبك ، وبرغم قتامة الصورة أمام عينى أحياناً فإنى أحس بأنى لم أغادرك قط . قاهرتى . . .

نعم . . . فأنا لم أسافر قط ولم أتركك . لم أبارح أرضك قط ولن أرحل عنك حتى لو رحلت عن دنياى كلها . إنك يا مصر كيانى ووجدانى ومستقرى فى الحضور أو الغياب .

هذا الواقع عشته ولم أكن أتخيله قبل أول مرة غادرت فيها حدود بلادى . لا بل إن مغادرتى للقاهرة إلى مدينة أخرى غيرها كانت تملأ نفسى حنيناً إليها وشوقاً ألفيته فيها ، فليس من السهل على الإنسان أن يغادر المكان الذى ولد فيه وعاش وتعلم . ليس سهلاً أن يترك أرض ذكرياته مهما كانت المغريات .

جميل أن يبدو الإنسان ضعيفاً . . . طفلاً . . . بسيطاً . . . إن الضعف الإنسانى هو أعظم مظاهر القوة .

فعندما يكون الحب قوياً والحنين جارفاً يكون الإنسان ضعيفاً . . . وكما يجرى الصغير فرحاً عندما يرى أباه أو يقترب من بائع الحلوى . . . كذلك يجرى أى مصرى إلى الطائرة المصرية عندما تهبط فى أى مطار فى العالم . موظفو شركة الطيران وبعض العاملين فى السلك الدبلوماسى . . . المبعوثون لمهام ، كل هؤلاء تراهم بسهولة يتسابقون على سلم الطائرة المصرية . وإذا لم يتمكنوا من الوصول إليها فإنك تجدهم فى شرفات الاستقبال ، فمتى واتتهم الفرصة لا يتراجعون . إن جريدة الأسبوع الماضى عندهم هدية تستحق الشكر وأخبار دورى الكرة وأحدث ما يتردد

من أغنيات هذه الأيام أعظم ما تقوله لهؤلاء المتلهفين على أخبار أرضهم الطيبة مصر .

* البطيخ طلع ؟ ؟ . . . نفسى فى الفول الحراتى . . .

أشياء صغيرة . . . طلبات قد تكون تافهة لكنها تعطى ابن هذه الأرض جرعات من دواء عزيز المنال اسمه (الصبر) .

رسائل وأرقام . . . تليفونات لا تحمل أكثر من (اطمئنوا أنا بخير- أنتظر رسائلكم) . . . كثيراً ما حملتها من المصريين فى الخارج لأحبائهم فى الداخل .

وكان أغرب ما طُلب منى هو أن أحضر معى (بطرمان مش) و٢ كيلو (فول حراتى) لمبعوث مصرى يدرس فى (براغ) فى (تشيكوسلوفاكيا) .

* سأنتظرك كل أسبوع فى المطار . . . وكلى أمل أن تأتى على أى رحلة ومعك هذا الطلب العزيز .

وتشاء الظروف أن أكلف نفس الرحلة فى الأسبوع التالى . وكانت مفاجأة له عندما رآنى أهبط سلم الطائرة وفى يدى حقيبة صغيرة من البلاستيك وكادت دموع الفرح تملأ عينيه وتشى بالغبطة العارمة التى ملأت نفسه انشراحاً . . ليس بالهدية ولكن برائحة ريف مصر الذى تربى فيه ونهل من نيله وتنسم أريج ثماره .

* «لما أقعد آكل راح أتخيل نفسى قاعد فى الشمس وقدام منى مشنة عيش مرحرح» . . . !

على فكرة . . . أنا أجرى بحثاً عن استخلاص بعض المواد الطبية من نبات (الشاكوريا) . . . كم هى عميقة . . . جذورك فى قلوبنا جميعاً (يا حبيبتى يا مصر) .

مدن لها ذكريات

يقول متخصصو البصمات إن لكل إنسان بصمات لا يمكن أن تتشابه هى وبصمات غيره من الناس ، وأنها علامة عليه وأقوى دليل على إدانته أو براءته فى حالات الجرائم . بل لقد قطع العلماء بأن بصمات أصابع التوءمين ، متباينة برغم كل التشابه بينهما .

بهذا أيضاً يتحدث خبراء الجمال ، فعندما يتحدثون عن الزهور يطلقون على كل نوع منها اسماً وصفة . بل يقولون على لسانها كثيراً من الحديث والشعر . فالأبيض رسول الصفاء ، والأصفر دليل الغيرة ، والبنفسج عنوان الجمال والحياء والاحتشام .

كذلك يقول بعض الكتاب والأدباء عندما يتحدثون عن المرأة ، فهم يؤكدون لك أن لكل امرأة لوناً وطعماً ورائحة تخالف ما تملكه الأخرى من هذه المميزات ويقولون إن عدد أنواع النساء يساوى عدد النساء فى العالم .

وبرغم هذا فلا يستطيع أحد أن ينكر أن التشابه هو أحد سمات

جميع الكائنات الحية مع كل هذا التعدد فى أشكالها . فلكل الزهور جذور، وسيقان وأوراق ، ولكل نساء العالم رءوس وأجساد وأذرع وسيقان .

حتى الأشياء التى صنعها الإنسان بيده تتشابه فى الكثير من خصائصها ، فللسيارات على تعدد (ماركاتها وموديلاتها) عجلات من الكاوتش ونوافذ من الزجاج ولكل البيوت على كثرة أشكالها حيطان من الطوب ونوافذ وأبواب .

كذلك المدن . كل مدن العالم قد تتشابه فى أشياء ولكنها تختلف فى أشياء أخرى . فلكل مدن العالم مطارات وشوارع وميادين وأبنية وعمائر ولكنك لا تبحث أبداً فى أى مدينة عن الأشياء التى لها شبيه فى باقى مدن العالم . وإنما تبحث عن الغريب فيها والنادر والفريد . قد تنسى آلاف التفاصيل ولكنك دائماً تتذكر أطرف الأشياء وأكثر المعالم غرابة .

قد لا تهتم بالآثار التى تحفل بها المدينة ، ولكنك تتذكر طبقاً قدمه لك الفندق الذى تنزل فيه ذات صباح . قد تنسى أهم صادرات هذه البلاد وأهم وارداتها وتتذكر عقداً غريباً اشتريته لزوجتك من بائع على أحد أرصفة هذا الميناء .

قد تنسى كل الذكريات ولا تنسى (مطبا) وقعت فيه بسبب جهلك باللغة وبعادات الناس فى إحدى مدن الشمال الباردة .

ومهما زحف النسيان على ذاكرتك فـإنه نادراً ما يترك أثره على

شريط الطرائف والنوادر .

لقد انقضت ثمانى سنوات كاملة على آخر مرة ارتديت فيها زى المضيفات وسافرت فيها كمضيفة .

ولكنى مازلت أذكر أشياء صغيرة . . . ربما تكون تافهة ولكنها طريفة . . . مازلت أتذكر شيئاً محدداً إذا ما ذكر أمامى اسم إحدى المدن .

طوكيو . . شوارع معلقة . . . وترام يجرى على قضيب واحد . . . والشوارع فى ضواحى طوكيو ترتفع إلى أربعة أدوار وليس بها مفارق ، بل إنها طبقات يعلو بعضها بعضا . تنظر إلى أسفل فترى اليابسة ثم بعدها ترى تحتك البحر .

لقد أصبت بالدوار فى أول مرة سرت فيها على طرق طوكيو المعلقة وهكذا تبين لى أن هناك ثلاثة أنواع من الدوار . . . دوار البحر . . . ودوار الجو . . . ودوار الأرض الذى شعرت به أول مرة زرت فيها طوكيو واعتليت طرقها .

وفى طوكيو كذلك رأيت عاملات النظافة يرتدين القبعة البيضاء والجوانتى الأبيض مع الفستان (المينى) .

وأصبحت هوايتى أن أدخل المحال الكبيرة قبل الخامسة بقليل ، وعندما يدق جرس انتهاء العمل بالمتجر ، أرى هؤلاء الحسناوات فى كل مكان ، من أجل النظافة والأناقة استعداداً لاستقبال يوم جديد .

كوبنهاجن . . . قلما تجد شخصا يعرف لغة غير لغة (الدانمارك) ولا مناص من استعمال الإشارة . وبطريقة (حادى . بادى) اخترت نوعاً من الطعام . ولما جاء الطبق لم أتمالك نفسى من الضحك أنا وزملائى فقد كان الطبق عبارة عن كمية محترمة من العظم الساخن . وهنا وهناك تلمح قطعاً صغيرة من اللحم ، وكأنها اللؤلؤة فى صدفة كبيرة .

وطبعاً ليس هناك من طريقة لأكل هذا الصنف سوى أن أمسك بالعظمة بيدى (وهات يا قرقضة) . . !

وترددت وأنا أتلفت حولى بقلق ، إلى أن وقع نظرى على فتاة دانماركية جميلة تمسك بقطعة من العظم بكلتا يديها وتحاول أن تنتزع منها أثر اللحم .

ولم أنظر لأحد . . وانقضضت على قطع العظم أحاول أن أجد من خلالها مذاق اللحم ، فما باليد من حيلة أخرى ، لأن تغيير الطبق معناه ٧ جنيهات إسترلينية أخرى . !

الجزائر . . . قضينا فيها يوما وليلة ، فقد منعتنا الظروف الجوية من الإقلاع ، ولأنى سأرى جديداً . . فقد كنت سعيدة . وتذكرت أنى قرأت مرة للأصفهانى فى كتاب الأغانى (فى طباع البشر الانتقال من شيء إلى شيء . وكل منتقل إليه أشهى إلى النفس من المنتقل عنه) .

واقترحت أن نخرج فى جولة وسط شوارع المدينة نبحث عن مكان شعبي نتناول فيه غداءنا . فقد سمعت كثيراً عن أكلات شعبية جزائرية

كثيرة ولما كانت المدينة قائمة على مرتفع جبلى فإن الشوارع المنحدرة والصاعدة تكثر فيها وتنتشر فيها كذلك السلالم الحجرية ، وتذكرت هذه السلالم فى بعض مناطق القاهرة ، ولما تملكنا التعب دخلنا أحد المطاعم الصغيرة .

وبرغم أنك تحادث عربياً مسلماً فإنك لا تستطيع أن تتفاهما إلا بالفرنسية ، وإلا أن تلعن الاستعمار . واشتد حنقى عليه ، لأن فرنسيتى لا تمكننى من التعبير عما فى نفسى .

ووقف الرجل أمام (النصبة) وأوقد الفحم ثم فتح باب الثلاجة ليخرج عدداً من العصى (المرشوق) بها قطع من اللحم صغيرة . وفوق الفحم المتقد وضعها (بنفس الطريقة التى يوضع عندنا الكفتة والكباب فى الأسياخ فوق الفحم) وإلى أن يتم نضج اللحم وضع أمامنا المشهيات ، أطباقاً صغيرة بها بصل مبشور متبل بالملح والفلفل .

ومع أرغفة الخبز الأبيض أكلنا لحم (البرجاز) والبصل .

وبرغم أن كلا منا قد أكل حتى لم يبق فى معدته حيز لنفس ، فإننا وقفنا جميعاً أمام عربة (الكسكسى) بعد دقائق من السير ، ولأن الأكلة كانت جزائرية ، فليكن (الحلو) جزائريا كذلك (كسكسى مفلفل بالسكر) ويباع على العربات . .

بومباى . . . كلنا يعرف جوز الهند . . . فنحن نأكله ونصنع منه الحلوى وأحياناً نكسر الثمار لنشرب ما بها من ماء .

ولكنى فى بومباى شربت ماء جوز الهند الأخضر.

الثمار كبيرة وتقترب فى حجمها من حجم البطيخة المتوسطة ، ولونها أخضر ، ودائماً تجدها فى شكل أكوام كبيرة فى عرض الطريق . وأمام كل كوم يقف صبى صغير وفى يده (مطواة) وإذا سألته واحدة أطاح لك بالجزء العلوى منها ليصنع لك فتحة تمكنك من شرب ما بداخلها . وما عليك إلا أن ترفع الثمرة إلى أعلى حتى ينسكب ما بها فى فمك– وأتركك لتتصور نفسك فى هذا الوضع حيث حجم رأسك يقارب حجم جوز الهند ، وكأنك لاعب كرة ماهر، يعرض مهاراته الذاتية .

ويبدو أنهم فطنوا لصعوبة هذا على بعض الناس ، فبدءوا يقدمون لك (شفاطة) من البلاستيك ، ولكنك غالباً سترفضها . لأنك تريد أن تحس بالفارق شكلاً وموضوعاً بين كوب عصير البرتقال وشراب جوز الهند الأخضر، وثق أنك لوشربته مرة فلن تنساه . فبرغم أنه يخلو من السكر تقريباً فـإنه لذيذ ، مهدئ ، منعش . ويقولون هناك إن له سبعين فائدة .

وليست أصناف الطعام والشراب هى كل ما أحمله من ذكريات المدن الكثيرة التى زرتها ، ولكنى كذلك أتذكر أغلى هدية اشتريتها من إحدى المدن وكذلك أرخص هدية .

من كوبنهاجن اشتريت أغلى هدية ، كرافتة ثمنها ١٥ جنيهاً إسترلينيًّا أى حوالى ٣٠ جنيهاً بأسعار ١٩٦٩ .

أما أرخص هدية فقد كانت قطعة قماش لفستان من الداكرون المنقوش اشتريتها بربع دولار (حوالى ١٨ قرشاً) من مدينة عدن .

بانكوك : امتدت إقامتنا فى هذه المدينة الجميلة التى يخترقها أطول طريق فى العالم إلى أربعة أيام . وفى الفندق علمنا أن إحدى شركات السياحة تنظم رحلة لمدة يوم كامل فى إحدى القرى السياحية القريبة من بانكوك وفى (الروزجاردن) أى حديقة الورد قضينا يوماً لن ينسى بين الفنون الشعبية والصناعات الوطنية ومع الصور التذكارية بين الفتيات والفتيان بأزيائهم القومية الجذابة .

وفى نهاية اليوم . أقيم حفل للرقص الشعبى فى مسرح كبير صنع كله من جريد النخل ، وتتابعت العروض الجميلة . . . والألعاب الشعبية . . . وفى ختام العرض قدمت رقصة الثعابين .

ولسوء حظى وقع اختيار أحدهم علىّ . . وبعيداً جدًا عن الثعبان وعن الراقص وقفت لا تكاد قدماى تلمس الأرض حتى أرفعها . لا طرباً من الألحان . . . أو تمشياً مع الإيقاع . . . ولكن خوفاً من الثعبان . . .

وشريط الذكريات طويل . . . والأحداث الطريفة كثيرة . . . قد يفرض النسيان نفسه على كبريات الأحداث . ولكنه قلما يقترب من ذكرى ابتسامة حلوة واسعة أو مطب ساخن .

إن شاء الله

عندما تتوفر للإنسان عناصر القوة . أو تكثر الوسائل المادية حوله فإنه كثيراً ما ينسى الله ، على عكس الإنسان الضعيف المحدود بأمنياته فهو دائم الذكر لله . كثير الحمد والشكر على نعمه مهما قل قدرها .

لو سألت قروياً أن يحضر لك شيئاً فى غده فإنه دائماً يقول لك (بإذن الله . . . . . إن شاء الله . . . . . لو أراد الله . . . . .) كلمات تشعرك بأنه ليس سيد نفسه . ولا سيد ظروفه ، وإنما هو يعترف بسيادة الله عليه . . . وهو لا يجد فى ذلك إقلالاً من شأن نفسه واعترافاً بضعفه . ولكنه يحس أن تسليمه بقدرة الله إنما هو نوع من التوجه إليه فى طلب معونته ومدده ، وأنه يستأذنه ويتوسل بمشيئته على قضاء حاجاته . ولأننا نعيش فى مجتمع مدنى متحضر . ولأن وسائل الاتصال السهلة تحت أيدينا « تليفون ، سيارات ، تليفزيون » ، فإننا كثيراً ما ننسى مشيئة الله .

وبرغم أن علوم الطيران هى أكثر العلوم تقدماً . وأن تقديرات الأجهزة فيها من أكثر التقديرات دقة . فـإن عالم الطيران بما يحويه من مفاجآت ومفارقات وظروف طارئة غالباً ما يثبت يقينك بقدرة الله ويؤكد مشيئته ، ويزيدك استمساكاً بالإيمان بغلبة من لا غالب له .

وأنت فى عالم الطيران تحس دائماً أنك سيد الكون ، ألا تقضى معظم ساعات يومك محلقاً فى الفضاء ، تعلو فوق كل شيء مهما كان عالياً ؟

أليس العالم بالنسبة لك ضيقاً وصغيراً ؟ ألا تقضى حاجاتك من أرجاء العالم على اتساعه كما يقضيها غيرك من الحى التجارى فى مدينتك ؟

ألا تستطيع أن تتناول غداءك فى أثينا وعشاءك فى لندن ؟ وفى طريق عودتك عن طريق باريس تستطيع أن تحمل لزوجتك وأولادك أحدث ما نتجته بيوت الأزياء ، كل هذا قائم وملموس فى عالم من يعملون فى ميدان الطيران ، وقد يحسدهم الجميع على هذه المتعة . . . متعة السفر « والتجول » واكتشاف المجهول والبعيد .

لكن أحداً لا يعرف ماذا يصنع عالم الطيران بنفوس من تضعهم الأقدار فى أتون ناره ؟

ولما كان عالم الطيران هو خلاصة التكنولوجيا فى العالم فالعاملون فى حقله أكثر الناس تأثراً بالتقدم العلمى ، وإحساس هؤلاء بالزمن إحساس دقيق ومرهف ، فهم لا يقدرون الزمن بالساعات وإنما بالثوانى .

وهم لا يقدرون العمر بالسنوات وإنما بعدد ساعات الطيران .

وبرغم دقة الحسابات والتوقعات فـإن مشيئة الله دائماً تؤكد نفسها فى هذا العالم السحرى الغريب .

فنشرات الأرصاد تؤكد صفاء الجو وهدوء الهواء وتأتى الأقدار بمرتفع

جوى أو بمنخفض مفاجئ يقلب موازين هذه الحسابات ويحطم كل التوقعات ، ويؤكد عشرات المهندسين الذين يعدون الطائرة للرحلة أنها سليمة تماماً وخالية من الأعطاب ، وبعد دقيقة من الرحيل يظهر فجأة ما يضطر قائد الرحلة إلى العودة بها ثانية أو البقاء فى مطار الوصول لحين إصلاحها .

هكذا تعلمت من الطيران أن أومن بالأقدار . . أن أومن بالمصادفات والحظ .أن أومن بأن هناك يدا خفية قادرة على عمل المستحيل .

لقد تعلمت من الطيران أن أضع مشيئة الله وإرادته فوق أى وعد أو ارتباط بشيء ما ، وأن أجعل لهما السبق على أى أمر من أمور دنياى .

فبأمر الله أرحل . . وبإذنه أعود ، بإرادته أتخلف أياماً وأياماً على غير موعد .

وليس هذا هو الدرس الوحيد الذى تعلمته من عالم الطيران . فقد تعلمت أن أقدس النظام . فلكل فرد عمله ، ولكل موقعه ، ولكل مسئوليته ، ولا يعتدى أحد على اختصاصات غيره . ولا يتهاون فيما اختص به من عمل ، وهكذا تستقيم الحياة . وكل مسئول عمّا اختير له من عمل ، يسأل عنه ، ويحاسب عليه .

وعالم الطيران يجعل حياتك غير خاضعة لنظام محدد ومرسوم بأبعاده وزواياه . . كل يوم له خطة غير اليوم الذى يليه واليوم الذى يسبقه . قد يسيء هذا (اللانظام) إلى صحتك ولكنه يضيف إلى شخصيتك بعداً

جديداً ، يضيف إليها إرادة وإحساساً بأنك سيد نفسك وسيد الكون ، وأنك قادر على تكييف نفسك فى الأجواء المختلفة والتوقيتات المتعددة ، فأنت إنسان جديد فى كل مكان جديد .

قد تضطر للسفر إلى الشرق الأقصى وتعيش فى أرقام درجة رطوبة لم تشهد القاهرة أرقاما تقترب من نصفها . ولكن عليك أن تتأقلم ، كذلك عليك أن تنام ساعات الليل التى كان مفروضاً أن تحياها مستيقظاً فى نهار القاهرة وتعمل ساعات نهار كان مقرراً أن تنامها ليلاً فى القاهرة .

ملايين الملايين من البشر يعيشون عبيداً لعادات تعودوها ، ولكنى (واحدة من أفراد الطاقم الطائر) متحررة من هذه القيود

تعلمت من عملى فى عالم الطيران أن أنسى نفسى بين الناس ، وأن أبتسم ابتسامة تنبع من القلب لا أن ترتسم على الشفاه والأسارير بغير روح وإحساس .

تعلمت أن أنسى آلامى وأن أبتلع متاعبى وأن أكون بين الناس مبتسمة مرحة واسعة الصدر . أحسن الظن بالجميع وألتمس الأعذار لأى إنسان ، تعلمت أن أعيش بعقليات الناس لا بعقليتى . فعملى يجعلنى أتعامل أنا وأشخاص بسطاء وآخرون فى قمة الثقافة والعلم ، بعضهم يحتل مراكز مرموقة ، وبعضهم لم ير من العالم إلا قريته الصغيرة .

وكذلك تعلمت من الطيران أن الإنسان صغير مهما عظم ، ضئيل مهما ملك من الحياة ، وهو كذلك جبار مهما قابل من تحديات .

لقد رأيت العالم أكبر بكثير مما كنت أتصور ، فسيحاً عما كان خيالى يجسد لى .

ورأيت صنع الإنسان فآمنت بقدرته ، ورأيت عظمة الله فتأكد إيمانى به وبخلقه . ولقد خلق الله الإنسان بما يحتويه من معجزات لا تعد ولا تحصى ليؤكد به قدرته جلَّ شأنه .

واسعة دنيا الله . صغيرة هى أمام تقدم البشر ، عظيم هو الإنسان عاجز أمام قدرة خالقه .

وهكذا كان إيمانى بالله وبمشيئته وبالإنسان وبقدرته هو أعظم درس تلقيته فى مدرستى الطائرة وفى عالم الطيران .

ما أحلى الرجوع إليه

على الرغم من أن أحلام الإنسان ورؤاه ملك خاص يحرص دائماً على الاحتفاظ به ، فإننى أسمح لنفسى بأن أروى أحلامى ، وأن أحكى رؤاى .

دقائق قليلة تلك التى كنت أقضيها جالسة على المقعد المخصص لطاقم الضيافة على أى طائرة . دقائق كنت أشتهيها وأحلم بها برغم أننى كنت أخشاها ، فقد كنت أضطر للجلوس وربط حزام المقعد فقط فى حالتين : حالة الإقلاع أو الهبوط ، أو فى حالة الظروف الجوية السيئة .

وبرغم أنى جلست على ذات المقعد مئات المرات وربطت الحزام وأسندت ظهرى على ظهر نفس المقعـد مرات ومرات ، فإن حلماً واحداً كان دائماً يرتسم أمام نظرى « العودة » « والرجوع » ما هذا الحنين الذى لم أتبين مصدره وكان يشدنى إلى الأرض؟ ربما لأننا خلقنا من ترابها ، وربما لأن بها مطارح ذكرياتى ، وربما لأن بها مآلف نفسى ومهوى خاطرى وشوق لأهلى وأحبائى .

لست أدرى على وجه التحديد ما الذى كان يشدنى إلى الأرض ، فبعد أن أغادر الطائرة وأعود إلى بيتى فإن صوت أزيز المحركات لم يكن يفارقُ أذنى ولا يبتعد عنى ، وإنما كنت أسمعه دائماً حتى عندما أضع رأسى على الوسادة فوق سريرى ، فقد تعودت هذا الصوت ولم أكن أطيق أن يبعد عنى.

وباعدت الأيام بينى وبين هذا العالم المسحور البعيد .

وتحدد عالمى الذى كان يوماً بلا حدود . . وضاقت دنياى التى كانت يوماً باتساع الدنيا .

وأصبحت دقائق أحلامى ساعات . بعضها أحلام يقظة ، وبعضها أحلام نوم . أحلام يقظة أحياها وحدى مع ذكريات بعضها حلو وبعضها مر .

وأحلام أخرى أحياها فى حكاياتى مع غيرى عن ذكرياتى فى تلك الأيام .

كم حلمت أنى فى مطار جدة ، أدخل الحوانيت الصغيرة أبتاع منها ثياباً جديدة .

كم حلمت أنى فى بومباى ، أشترى حقيبة يد من جلد الثعبان ، خاصة وقد سادت موضته فى السنوات الأخيرة .

كم حلمت بطعم الآيس كريم فى الكوب الكبير من مطار روما .

أحلام وأحلام ألف بها العالم وأنا مغمضة العينين أستعيد ذكريات أيام حلوة وليالٍ سعيدة وساعات بين بين .

فهل تتمنين يا نفسى أن أعود إلى عالمى الطائر ، وإلى دنياى المحلقة ؟ ؟

وهل أترك الأرض التى استقر بى المقام أخيراً فوق أديمها إلى أحضان السحب الحانية ومفاجآت الرياح الهوج .

سؤال تردد علىّ ولم أكن أجد له فى سهولة إجابة محددة ، فلا أنا زاهدة فى العودة ، ولا أنا راغبة فى البقاء .

وتذكرت قول شاعر الهمسات (أحمد عبد المجيد) فى ثنائيته الرقيقة :

أنا أشتهى مالا أرى ... وأرى الذى لا أشتهى
وكذلك أطماع الحيـ ... ـاة بداية لا تنتهى

وأنا – وإن كنت لا أحلق على متن طائرة كل يوم – تحتوى جعبة

الذكريات مئات الرحلات ، قليلها من صلب الواقع ، وأكثرها من صنع الخيال .

ولأنى التزمت جانب الصراحة المطلقة ، والصدق التام منذ كلمتى الأولى : فدعنى عزيزى القارئ أبوح لك بالسر :

(ما أحلى الرجوع إليه).

الكتاب القادم :

المساواة فى الإسلام — د . محمد بديع شريف

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٦٢٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٥٣ – ٩

٩٧/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)